حول خلق آدم

لقد امتلأت الديانات سماوية وغير سماوية بقصص عن الخالق والخليقة والعالم الآخر وحياة الإنسان والأنبياء والصالحين وغير ذلك من الموضوعات مما يمس الاعتقاد الدينى من قريب أو بعيد . ولعل قصة خلق آدم أكثر هذه القصص انتشاراً بين الأديان المختلفة وخاصة ما كان منها غير سماوى . بل إن الديانات السماوية لتمر بهذه القصة مروراً لا تكاد ترويها إلا لتبيان ما فيها من عبرة على حين هى تحتل فى الديانات الأخرى أو فى المعتقدات الشعبية منزلة هامة . وقد تفنن الخيال الشعبى فى وصف مواقفها وشرح ما غمض منها تفنناً كثيراً يشبع رغبته الملحة ولكنها القاصرة فى الوقت نفسه عن تصور أمر هام جسيم كنشأة الحياة على الأرض . ولقد جمع علماء الاجتماع كثيراً من قصص الشعب ومعتقداته تمهيداً لدراستهم الاجتماعية . فكان لنا من هذه المجموعات مستندات طريفة يمكننا بواسطتها أن نتتبع نظرة الشعوب المختلفة والقبائل المتباينة إلى موضوع دينى بعينه ، بل يمكننا بواسطتها أن ندرس العقل الشعبى فى تطوره وارتقاء تصوره للأمور من عصر إلى عصر .

ومن أشهر علماء الاجتماع هؤلاء الذين عنوا بالمعتقدات الشعبية السير جيمز فريزر مؤلف كتاب « الغصن الذهبى » *The Golden Bough* وهو يقع فى اثنى عشر مجلداً ضخماً ، وقد تضمن دراسات مقارنة فى الأديان والخرافات والسحر . وله فى هذا الميدان مؤلفات أخرى كثيرة تمتاز بوفرة المادة التى يصعب العثور عليها كثيراً ، وهى معتقدات القبائل والأمم على مرّ العصور وفى مختلف أصقاع الأرض . ولقد جمع فى كتابه « العناصر القصصية الشعبية فى الإنجيل » كثيراً من هذه القصص والخرافات مبوبة حسب موضوعاتها ليقارن بينها وبين ما عرفت الديانات عن طريق اليهودية القديمة من قصص دينى . فهذه مجموعة حول قصة خلق آدم ، وتلك حول قصة خروجه من الجنة ، وتلك حول قصة سيدنا نوح أو حول برج بابل . وهكذا وإذ قد اجتمع لدينا هذا النوع الطريف من القصص مبوباً حسب موضوعاته مقارناً بينه وبين الأصل اليهودى فإنه من السهل علينا

بعد ذلك ان نتبين إلى أى حد يصور لنا النص اليهودى القديم خلاصة تلك المعتقدات الشعبية بعد أن ارتفعت عن شوائب السذاجة والتفاصيل الخياليه الكثيرة بمرور الزمن ورقى الإنسان . ومن السهل أن نرى كيف أن الأصل لا يزال محافظاً عليه لا فى تلك المعتقدات الشعبية التى كانت منتشرة قبل ظهور اليهودية فحسب ، ولكن فى تلك المعتقدات الشعبية التى ما تزال حية والتى ماتزال يؤمن بها سكان تلك الأصقاع النائية التى لم تطأ أرضهم بعد إحدى الديانات السماوية كما قد أثبت البحث العلمى ذلك .

لقد اتفقت الديانات السماوية على أن الله خلق آدم من تراب ، وأنه خلقه على صورته ، وأنه خلق من ضلع من أضلاعه أمتا حوّاء . وعلى هذا القدر تتفق كل هذه الأساطير والخرافات التى جمعها السير فريزر فى كتابه تقريباً لا تكاد تختلف إلا فى التفاصيل وإلا فى مسألة خلق حواء أخلقت مع آدم أم بعده ، اخلقت من التراب أم من ضلعه .

ولقد أهمل السير فريزر ملاحظة الاختلاف بين هذه القصص المختلفة إلا ما كان منه بين النصين الإنجيليين ؛ لأنه قد عنى فى كتابه كله بإظهار تلك الحقيقة وهى أن ما فى الديانات السماوية من قصص دينى بل ما فى اليهودية خاصة باعتبارها المنبع الأصلى لهذا النوع من القصص فى الديانات الأخرى ، كان موجوداً قبل ظهور اليهودية بقرون كثيرة ، وما هذا الذى نجده فيها إلا بقايا معتقدات شعبية كانت ولا زالت بعيده كل البعد عن الوحى السماوى .

ولعله من الطريف أن نعرض لهذا الذى لم يعن به السير فريزر فنرى نماذج مختلفة من سذاجة الشعب المعروضة فى هذا القصص وحب الشعب لتفسير كل ما غمض عليه ، بل كل ما لم يغمض ويراه هو حريّاً بأن يفسر ، ثم اطمئنانه لهذا التفسير مهما يكن ساذجاً تافهاً لا يقره منطق وقد لا يؤيده واقع .

وهذه قصة بابلية قديمة رواها قس بابلى وحفظت لنا اليونانية ترجمة لنصها القديم تفسر لنا امتياز الإنسان دون سائر ما خلق الله بالذكاء والحكمة فتقول : إن الإله « بعل » لما أراد أن يخلق الإنسان وجد التراب يابساً صعب تشكيله فأراد أن يوطيه فنادى الآلهة الأخرى وضحى بنفسه فقطع رأسه فسال منه الدم فاختلط بالتراب فقامت الآلهة وشكلت الإنسان من هذا التراب المبلل بدم رأس الإله الأكبر . ومن هنا جاءت الحكمة آدم دون سائر ما خلق الله .

وأكثر هذه القصص فيما نرى تحاول أن تؤكد أن التراب الذى خلق منه آدم كان أحمر اللون . فإذا عينت مكاناً من الأرض خلق فيه آدم رأيت احمرار التربة فيه.

ولتفسير الاختلاف بين الآدميين شكلاً وخلقا تلجأ هذه القصص والأساطير إلى القول بأن آدم لم يخلق واحداً وإنما خلق الله على شاكلته كثيرين . فلتفسير الاختلاف فى أخلاق البشر تقول إحدى هذه الأساطير التى يرويها سكان جزائر « بيلو » : إن الدم الذى خلط الاله أو الآلهة به تراب الأرض كان دم حيوان ، وفى كل مرة يخلق فيها صنف من البشر يخلط التراب بدم صنف من أصناف الحيوان ، فمرة يخلط بدم الفأر فتغلب على هذا الانسان وعلى نسله أخلاق الفيران فهم يسرقون ، ومرة بدم الديك فتغلب على هذا الانسان وعلى نسله أخلاق الديكة فهم يشجعون ، ومرة بدم حية فتغلب على هذا الانسان وعلى نسله أخلاق الحيات فهم يمكرون ، وهكذا .

ولتفسير الاختلاف فى الشكل تقول أسطورة يؤمن بها « السلوك » سكان منطقة النيل الأبيض : إن الاله « جووك » كان أثناء خلق الانسان يجوب أنحاء الأرض ، ففى أرض البيض وجد التربة بيضاء فصنعهم منها ، وفى أرض النيل وجد التربة سمراء فصنعهم منها ، وفى أرض النيل الأبيض وجد التربة سوداء فصنعهم منها . وتستمر هذه الأسطورة بجزء طريف تفسر به وجود أعضاء الانسان على هذا النحو فتقول : إن الخالق قال لنفسه إن الانسان لا بد له من أن يسير على الأرض ليفلحها ، فلتكن له لذلك أرجل البانروش : ولا بد له من حرث الأرض فلا بد له من يدين إحداهما يمسك بها الفأس والأخرى يقلع بها الأعشاب ، ولابد له من مباشرة عمله فلا بد له من عينين ، وهكذا يستمر القاص فى تفسير وجود الأعضاء عضواً عضواً .

وهناك مشكلة حارت فى تفسيرها تلك الأساطير ، وهى فناء الحياة الانسانية . فلتفسير ذلك تقول قصة يرويها سكان إحدى تلك الجزر النائية فى المحيط الهندى : إن الآلهة ندبت إلهين من بينها لعمل الانسان الأول ، فتفننا فى صنع الرجل والمرأة ، ثم تركا عملهما على طريق الآلهة العام لتراه وتنتقده . وفى مجمع الآلهة أقرت فيهما أشياء وعابت أشياء ، وظل الإلهان يصلحان من أمر رأس الانسان وبطنه حتى رضيت الآلهة جميعاً عن شكله فلقد أتقن إتقاناً تاما . وصعد الإله الأكبر إلى علياء السماء ليبحث عن روحين خالدين ليضعهما فى الجسدين فتدب

فيهما الحياة الخالدة ، ولكنه نسى فى سرعته أن يأخذهما معه فجاءت الرياح الأرضية اللعينة فدخلت فى خياشيمهما فتنفسا ودبت فيهما الحياة . فلما عاد الإله الأكبر وجدهما حيين ولكنها حياة أرضية فانية . وتقول القصة فلذلك يعود الروح الانسانى دائماً إلى الرياح كلما مات صاحبه .

والظاهر أن سذاجة الشعب أبت عليه أن يتصور أن الله يخلق مخلوقاً فانياً فلابد لعمل الله من أن يكون كاملا ، وفناء الحياة فى الانسان نقص ما بعده نقص . أما تصور خلود حياة الإنسان بعد الموت فذلك ما يحتاج إلى تطور فى عقل الشعب لا تصوره لنا تلك القصص التى جمعها السير فريزر . وهذه قصة أخرى تفسر لنا لماذا خلق الانسان فانياً ، هذه أسطورة تؤمن بها قبيلة اسمها « كومس » تسكن « تشينا جونج » من شرق الهند ، تصور لنا ما يعتقد هؤلاء القوم فى أصل الخليقة ؛ فهم يؤمنون بأن إلههم بعد أن خلق الأشجار والحيوانات خلق الرجل ثم المرأة من الصلصال ، وظل نهاره كله يشكل فى الصورتين حتى تعب فنام ليستريح . يقول القاص لأنه إن لم يسترح لايستطيع أن يعمل شيئاً . فاذا أفعى رقطاء جاءت فالتهمت الجسدين التهاماً ، وكرر الاله عمله وكررت الأفعى اللعينة فعلتها ، حتى استشاط الاله غضباً فخلق الكلب ليحرس له الصورتين أثناء نومه وراحته . فلما فرغ من عمله مساء أقام الكلب حارساً ونام مطمئنا ، فاذا بالأفعى تظهر للكلب فنبح عليها فتنبه الاله وحمى الجسدين من الأفعى . يقول القاص : وهذا هو السبب فى أن الكلاب ما زالت إلى اليوم تنبح كلما هم آدمى بالموت . ولكن الاله ينام نوماً عميقاً هذه الأيام ، فنباح الكلب لا يوقظه وتذهب الأفعى بالحى فيموت !

ويظهر الكلب كثيراً فى هذه الأساطير : خلقه الله ليحرس عمله فى تشكيل الانسان الأول أثناء نومه . فهذه أسطورة أخرى تؤمن بها قبيلة « شير يمس » إحدى قبائل الروس ، تقول : ان الخالق بعد أن شكل آدم من الصلصال صعد إلى السماء ليبحث له عن روح يحيا به ، وجعل الكلب حارساً عليه حتى يعود . ولكن الشيطان انتهز فرصة غياب الاله فأرسل ريحاً صرصراً عاتية ارتعد لها الكلب وكاد يهلك برداً ، فأتاه الشيطان بفرو يغريه به فأخذه الكلب وهو أشد ما يكون ألماً من البرد وسمح فى مقابل ذلك للشيطان أن يعبث بالجسد ما شاء . فانطلق للشيطان وأفسد فيما صنع الله ما أفسد . فلما عاد الإله بالروح وجد أن المال قد

بلغت من السوء حداً لا يفلح فيه أى إصلاح ، ولم يكن هناك بد من أن يقلب الانسان ظهراً لبطن حتى يصبح شكله مقبولا . وهذا هو السبب كما تقول تلك الأسطورة فى أن جوف الإنسان قذر مختلط فى حين أن ظاهره أملس جميل . ولقد لعن الإله الكلب منذ ذلك اليوم فظل ملعوناً .

ولتفسير فكرة أن الله خلق الإنسان على صورته يرى العقل الشعبى أن الله لا بد أن يكون قد رأى صورته فى مرآة أو ما يشابهها ليصور شيئاً مثلها وهذه أسطورة دينية منظومة هى دين سكان إحدى الجزر فى الجنوب الغربى من سومطرة ، تقول أبياتها : إن الاله الأكبر «لوو زاهو» كان يستحم فى نهر من الأنهر السماوية ذات المياه النقية الصافية . فلما رأى صورته منعكسة على صفحة الماء أعجب بها ، فبدا له أن يخلق من التراب ما يقلد به هذه الصورة ، فأخذ من تراب الأرض ما شكل به إنساناً صغيراً ووزنه ثم وزن من الرياح ما يعادله وادخل الريح فى أنف الجسد الذى شكله ، فكان آدم أو الانسان الأول «سبهابى» كما يدعونه .

وإذ قد أشكل على فهم الشعب أن يخلق الله من هذا التراب الذى يزدرونه إنساناً ، فقد حاول أن يفسر ذلك . وهذه أسطورة تمثل تفسيره يؤمن بها سكان إحدى جزر « الفيليبين » فيروى أن الخليقة بدأت بكائن أول أو إله اسمه « مبلو » وكان هذا الإله ضخماً عظيماً أبيض اللون ذهبى الأسنان وقد جلس فوق السحب فامتلأت السماء بضخامته . وكان أبيض ناصع البياض ، لا يطيق من فرط حبه للنظافة أن يعكر صفاء بياضه شىء ، فدأب على أن يرفرف بجناحيه ليزيل ما قد يعلق بهما . ومن هذا الذى تناثر من جناحيه تكونت حفنة كبيرة من التراب ، فبدا له أن يجعل منها الأرض فجعلها ، وتبقى قليل منها ففكر فى أن يصنع منه ذكراً وأنثى . وبينما كان عاكفاً على عمله إذ أقبل عليه إله آخر اسمه «تاوو دالم تانا» وطلب منه أن يترك له الأنف ليصنعه هو . وبعد مناقشة حادة اذعن الاله لتاوو وأسلمه الجسدين وصعد غاضباً إلى السماء ناسياً أن يكمل أحد المخلوقين ليكون كالآخر . وصنع تاوو الأنفين وجعلهما مكانهما ، ولكنه لسوء الحظ قد جعل فتحاتهما إلى السماء ورضى عن عمله وصعد إلى العلياء مطمئنا ، فإذا المطر يهطل فيَشْرَق الجسدان ويكادان يهلكان . ورأى الاله مابهما من ضر فرحمهما وهرع إليهما وأصلح الأنفين بأن قلبهما فكانا كما ينبغى لهما أن يكونا .

وهكذا تستمر هذه الأساطير تصور لنا من الخرافات ألواناً ومن القصص الطريف أنواعاً ، لها كلها جمال السذاجة وقوة الخيال الفطرى . فكل شىء له تفسير حى قد انتزع من الحياة الإنسانية البسيطة انتزاعاً ، حتى صوت الحشرات ليلاً يأبى هذا العقل البسيط أن يراها كذلك ولا بد له من أن يسبغ عليها شيئاً من جمال خياله ، فهى صوت المطرقة التى ما زال الله يطرق بها الآدميين أو الأطفال الذين يولدون . يسأل كل تمثال مايريد أن يحمل ، فإن قال سيفاً جعله ذكراً وإن قال نولاً للنسيج جعله امرأة . وكل الظواهر الطبيعية لها تفسير ، فالمطر دموع الملائكة ، والرعد حركتها فى السماء . وهكذا يكسب عالم المادة الجاف من هذا الخيال حياة خصبة رغم بساطتها وسذاجتها .

لقد أتاح لنا السير فريزر هذه الفرصة النادرة لأن نجول بين أساطير ما كان لفرد واحد أن يجمعها كلها فى صقع واحد . ولئن كان هو قد أفاد منها فى أنه برهن على ما أراد أن يثبت من حقائق اجتماعية علمية لقد أفدنا نحن بدورنا هذه الجولة الصغيرة فى الخيال الشعبى لنرى فيه من الجمال الأدبى الحلو مالا يتوافر إلا فى قصصه وخرافاته .

سهير القلماوى